الشّعر الشّيعيّ ضَرْبًا من المدائح النّبويّة ، أو على الأقل نرى فيه نواةً مُبكّرة لهذه المدائح .

وحينما نُمْعِنُ النّظَر في الفكر الشّيعيّ الإسماعيليّ ، الذي كان مذهبَ الدّولة الرّسميّ في ظلّ الدّولة الفاطميّة بمصرَ ، نجد أن فكرة الحقيقة المُحَمّدِيّة، التي سوف نراها ماثِلَةً بعد ذلك في المدائح النّبويّة المُتَأخّرة منذ القرن السابع ، تبدو كامِنَةً في كتابات دُعاة الفاطميّين . ولْنَرَ كيف يُفَسّر المؤيّدُ في الدّين الشّيرازي داعي الدُّعاة (المُتَوَفّى في القاهرة سنة ٤٧٠) الآيةَ القرآنيّة الكريمة : « يا أيُّها النّاسُ اتّقوا رَبّكم الذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ منها زَوْجَها وَبَثّ مِنْهما رجالاً كثيراً وَنِساء ... » (سورةُ النّساء ، آية ١) :

« قال المُفَسّرون : النّفْس الواحدة التي خُلِقَ النّاسُ منها : آدمُ ، وزوجُه المخلوقة منه : حوّاء . ونحن نقول إنه في ضِمْن الآية من مَعْنى الحِكْمَة التّنْبيهُ على مَنازل النّبيّ والوَصِيّ والأئمّة . وقوله : خلقكم من نفس واحدة ، النّفْس الواحدة التي خلقنا منها خَلْقَ الدّين : هو النّبيُّ ﷺ . والزّوْج المَخْلوقة منه ضلعًا من أضلاعه ، ككَوْن حواء ضلعًا من أضلاع آدم (عليه السلام) هو وَصِيُّه (عليه السلام) الذي كان أحَدَ حُجَجه فصار زوجًا له ، حاملاً لعلمه ، وخازنًا لسِرّه ، ومُسْتَوْدَعًا لعِلْمِه وحكمته .»[1] فنحن نرى من هذا النّصّ كيف يورد تفسير الآية على ظاهرها ثم يؤوّلها تأويلاً باطنيا ، فيرى النّبيّ ﷺ أصلاً « في الخَلْق الدينيّ » (أي الرّوحيّ) ، وأن عليا هو المنبثق منه . وسنرى كيف يلتقي الفكر الصّوفيّ لدى ابن عربي مع هذا الفكر الإسماعيليّ .

والواقع أن نَواة هذه الفكرة الصّوفيّة توجد منذ قديم لدى الحسين بن منصور الحَلاج ، (ت ٣٠٩) الذي ربما كان أوّل مُعَبِّرٍ عنها ؛ إذ كان يرى

(١) المؤيّد في الدين هبة الله بن أبي عمران الشّيرازي : المجالس المؤيّديّة ، تلخيص حاتم بن إبراهيم ، تحقيق محمد عبد القادر عبد الناصر ، القاهرة ١٩٧٥ ، المجلس ٧٩ ، ص ٢٧٦-٢٧٧ ، وكذلك : المجلس ١٧ ، ص ٩٤-٩٧ .